

شعرية اللغة وجماليات المتخيل السردى في رواية طفولتي حتى الآن لإبراهيم
نصرالله

**The poetics of language and the esthetics of narrative
imagination in Ibrahim Nasrallah's novel "My Childhood
Until Now"**

ط.د. أسية رافع⁽¹⁾ * أ.د. صبيرة قاسي⁽²⁾

⁽¹⁾⁽²⁾ مخبر قضايا الأدب المغاربي، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة، الجزائر

⁽¹⁾assia.rafa@univ-bouira.dz ⁽²⁾s.gaci@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2025/10/27؛ تاريخ القبول: 2025/12/29؛ تاريخ النشر: 2026/06/30

ملخص:

يتشكل بامتزاج اللغة والمتخيل فضاء واسع للرواية تتحقق فيه أبعاد الرؤية وعمق البناء، فإذا نمت فيه براعم الشعرية حققت فنية النص وجماليته، ما يجعل لكل نص روائي خصوصيته ولكل روائي متخيله الذي يميزه، من هنا جاء هذا البحث ليتقصى شعرية اللغة وجماليات المتخيل السردى في رواية طفولتي حتى الآن للكاتب إبراهيم نصر الله، هادفا إلى تبيان مدى عمق اللغة وجمالياتها وقدرة الروائي في بناء المتخيل المستمد من الواقع بجمالية مستمدة من اللغة.

لتتجلى في نهاية البحث فنية الرواية وجمالية المتخيل، فخلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أبرزها يظهر في ملامسة الرواية أعماق الواقع بكل ما عند الروائي من متخيل، فيظهر للقارئ واقع آخر هو في الأصل متخيل، وذلك بما تحمله اللغة فنية وجمالية. كلمات مفتاحية: الشعرية؛ الجمالية؛ المتخيل السردى؛ اللغة؛ الرواية.

Abstract:

The fusion of language and imagination creates a vast space for

the novel, where the dimensions of vision and the depth of construction are realized. If the buds of poeticity grow within it, the artistry and beauty of the text are achieved, giving each novel its uniqueness and each novelist their distinctive imagination. Hence, this research aims to explore the poeticity of language and the esthetics of narrative imagination in the novel "My Childhood Until Now" by the author Ibrahim Nasrallah, aiming to demonstrate the depth and beauty of the language and the novelist's ability to construct an imagination derived from reality with an esthetic drawn from language.

To reveal the artistry of the novel and the beauty of the imaginary at the end of the research, the study concluded with a series of findings, the most prominent of which is the novel's touching on the depths of reality with all the novelist's imagination. It gives the reader the illusion of another reality, which is originally imaginary, thru the artistic and esthetic qualities of the language.

Keywords: Poetics; esthetics; narrative imagination; language; the novel.

المقدمة:

تحدد الجمالية التي تفرض وجودها في النصوص السردية بعمق اللغة حين تنحاز عن معانيها السطحية في البناء، والمتخيل الذي يحبك من تفاصيل الحكى الصغيرة روائع فنية في الأدب شعرا ونثرا، من هنا يتخذ الكاتب طريقه نحو التميز والتفرد في أسلوبه وذاته الإبداعية، ولأن الرواية أكثر الأجناس سردية سعى في فضائها المتخيل رحابة واتساعا متجليا في تشكيلها وخصائصها البنائية، فاستمد منه الكتاب رؤيتهم للواقع وأتاح لهم إعادة تشكيل المرجعيات الثابتة بحرية أكثر، مثل الروائي إبراهيم نصر الله محل دراستنا.

شكلت الرواية عند إبراهيم نصر الله جانبا آخر من الكتابة لا يقتصر على المتعة أو الجمالية؛ ليجعل منها قضيته التي تحمل ذاته المنفية فكانت مشروعه في البحث عن هوية كل فلسطيني متخذا من اللغة سلاحه فأبدع في الوصف والتصوير وبناء المتخيل، من هنا جاءت دراستنا لروايته "طفولتي حتى الآن" التي ضمنها سيرته الذاتية بلغة فنية يتيه المتلقي في جوهرها، وذلك للبحث في جماليات المتخيل السردى التي تضيء على النص الحيوية

والتشويق وذلك إنطلاقاً من الإشكالية الآتية: كيف تجلت شعرية اللغة في الرواية؟ وما مدى تحقيقها لجماليات المتخيل السردي فيها؟

تندرج حول هذه الإشكالية مجموعة من الفرضيات التي تنبني عنها رؤية الرواية ونتائجها نجد من هذه الفرضيات:

- هل توفق عتبات الرواية في تحقيق شعرية اللغة والمتخيل بالموازاة مع النص الحقيقي؟
- تتشارك الذاكرة والأحلام في بناء متخيل الطفولة فهل نشهد التماسك بينهما؟
- في وصف الواقع المتخيل تتحدد إبداعية اللغة فكيف تجلت في النص.

من خلال هذه الفرضيات تهدف الدراسة إلى تقريب زاوية البحث نحو اللغة ببيان فنية أسلوب الكاتب من خلالها في رواية "طفولتي حتى الآن"، إضافة إلى جماليات المتخيل السردي التي تحقق للنص الأدبي خصوصيته الفنية والإبداعية، وذلك بداية من عتبات الرواية إلى بناء متخيل الحلم والذاكرة ووصف الواقع المتخيل في متن النص.

نتخذ في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في تحليل بناء الرواية وتفكيكها وتتبع مظاهر وصف المتخيل فيها، مستعنيين ببعض آليات المنهج السيميائي في تحديد دلالات ما وراء المعنى في العتبات وعلاقتها بما يحمله النص من رؤى لتحقيق التوازي بينهما.

1. عتبات الرواية (النص الموازي وبداية المتخيل):

إن أول ما يواجه القارئ من النص هو العتبات، فتكون الرابط بينه وبين سياقاته الخارجية وبين المبدع والمتلقي، هذه الرابطة التي أخرجتها من هامش القراءة وهيمنة النص إلى ضرورة حتمية تستلزم الدراسة والتحليل، فكانت بداية الاهتمام بها عند جرار جنيت الذي ركز على المناس "جاعلاً منه خطاباً موازياً لخطابه الأصلي (وهو النص)، يحركه في ذلك فعل التأويل وينشطه فعل القراءة، شارحاً ومفسراً شكل معناه"⁽¹⁾ ما جعلها تكتسب صفة الموازاة مع متن النص.

ولأن فضاء النص المعاصر تنبني هويته من شعرية عتباته كانت بداية القراءة منها،

(1). عبد الحق بالعباد، عتبات (جرار جنيت من النص إلى المناس)، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان،

للبحث عن دلالاتها وجمالياتها التي تستقطب القارئ، "فما أكثر العتبات وما أصعب اقتحام أي فضاء دون اجتياز العتبة. العتبة فضاء."⁽¹⁾ ينبني في هذا الفضاء عمق الكاتب في اجتياز سطحية التعبير ومحاولة البناء المكثف لتقديم صورة كلية بلغة مكثفة.

1.1. طفولتي حتى الآن (شعرية العنوان وتكثيف المتخيل):

تتمثل في العنوان أهم العتبات فيجود فيه الكاتب بأساليب الإبداع والفنية، ليكون واجهة القارئ الذي يبحث عن الجمالية التي تطرح فيه سؤال الحيرة والدهشة، يكون جوابها النص في حد ذاته، من هنا بدء الاهتمام بالعنوان "لكونه علامة نصية وسميائية ناطقة ومعبرة فقد غدا العنوان الروائي موضوع الدرس السيميولوجي بامتياز، يتمثله الباحث على صورة نظام سيميولوجي متعدد القيم الجمالية والأبعاد الأيديولوجية"⁽²⁾ لتتحدد هذه القيم والأبعاد بالسؤال المطروح دائما عن رؤية الكاتب المستترة خلف العنوان.

يصادفنا الكاتب في عنوان روايته السيرية طفولتي حتى الآن بجمالية تحت القارئ للبحث في مكونات عنوان يجمع بين البداية والنهاية والاستمرارية، تتجلى فيه شعرية التركيب بين الماضي والحاضر وبين الحلم والواقع، فتنبئ لفظة طفولتي عن ماض يحمل دلالة العودة والأمل، فالطفولة بكل قساوتها تبقى الحلم الذي يعيشه الطفل والكبير، لتأتي بعدها تركيبة "حتى الآن" فيبني الكاتب منها طفولة لا تحدها سنين ولا يوقفها العمر، لتتشكل باجتماع التركيبان مرونة الواقع والمتخيل وامتزاجهما، مثلما ظهر في النص.

تشكل في بنية الرواية مظاهر العنوان بصفته "علامة نصية تسعى إلى الكشف عن ملامح المجهول المنتظر (النص)"⁽³⁾ فيحكي الكاتب عن الطفولة عبر مراحل ويكسر نمط السرد مرات أخرى ليعود إلى الحاضر وهو زمن الكتابة، فنجد في الكاتب طفولة تعيش فيه ويسكن إلها ليعبر عن ذلك في النص بقوله "لم أترك طفولتي يوما، تبتعد كثيرا، إن

(1). المرجع نفسه، ص. 13.

(2). عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، ط1، دار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا،

2011، ص. 14.

(3). عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، ص. 20.

الوحوش تتجول في الجوار. لذا.. لم أجد بدا من الاحتفاظ بها.. حتى الآن" (1) لتمثل الطفولة الملاذ والوطن الذي يعيش فيه متخيل الكاتب بعيدا عن وحشة الواقع.

كما نجد النص يحمل من دلالات العنوان ما يفصل شموليته، فتتجسد في ثنايا السرد أحلام الطفولة وبراءة الرؤية، لتتشكل في هذا العالم القيم السامية التي يفتقدها كل منفي في عالم يعج بالشرور، إذ نجد في الرواية البحث عن الطفولة حيناً والتمسك بها أحيانا أخرى ف"لسنا بحاجة لإنسان نشيخ معه بقدر ما نحن بحاجة لإنسان نبقي معه أطفالاً" (2) تبرهن هنا شخصية نور الأقرب إلى إبراهيم نصر الله في الرواية أن الإنسان يبقى بحاجة لجانب الطفولة فيه، وإن لامس الشيب رأسه سكنت في متخيله فالطفولة حياة.

تتجلى من خلال هذا فنية اللغة في عنوان اجتمعت فيه البساطة والشعرية لتمتزج مع رحابة المتخيل، ما يحفز أفق المتلقي للإبحار بمتخيله في متاهات العنوان، إذ رغم فنية العنوان وكثافته نجده يحمل فضاء متخيلاً واسعاً يتجلى في الذاكرة وتحصره اللغة، ما يجعله نصاً موازياً يختزل المتن أسلوباً ويفتح آفاقه ذاكرة ومتخيلاً.

2.1. عتبة التصدير (سلطة الواقع وشعرية المتخيل):

يشكل التصدير في الرواية أحد العتبات التي تمنح النص بعداً رمزياً، فتتفتح أفق الإيحاءات التي تنبني بينه وبين النص، ليكون بمثابة الدليل الذي يمهد طريق القراءة ما يجعله "يساهم بالتضافر مع عناصر أخرى من النص الموازي في توجيه أفق انتظار القارئ" (3) حيث تستقيم الرؤية وتتحدد من خلاله فضاءات النص الأولى وأبعاده الفنية ما يقرب القارئ من النص أكثر، مثل ما نجده عند الروائي إبراهيم نصر الله.

فيمهد التصدير في رواية طفولتي حتى الآن لأحداث الرواية بقول تنسجم فيه صورة كلية عنها، فتنبني فيه قوة الكاتب الفنية وآفاقه الفكرية، التي "تمكن القارئ الحذق من استنتاج رؤية فنية معينة سيتمحور حولها النص لاحقاً" (4) فتمتكن الكاتب من بناء

(1). إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، الإمارات، 2022.

(2). المرجع نفسه.

(3). نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصة المعاصرة، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2017، ص. 59.

(4). عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، ص. 145.

العلاقة المتوازنة بين النص والتصدير استطاع التأثير أكثر في ذهن المتلقي الواعي الباحث عن الجديد.

حيث تبدأ الرواية بقول من تأليف الكاتب بذاته خاتماً ذلك بالحرف الأول من اسمه ولقبه فيقول "عن الخيال الذي عشته، والحقيقة التي عاشتني" لتتجلى فيه رنة من الإيقاع المؤلم عن خيال عاشه الكاتب من طفولته باحثاً فيه عن الأمل والحياة وبين حقيقة عاشته في ظل التهجير والنفي المحكوم على كل فلسطيني، فتتضح في القول رؤية الكاتب في الرواية التي أوردتها أحلامه من جهة وحقيقة الواقع المفروض عليه من جهة أخرى.

كما تتضح في القول فنية اللغة التي تحمل برمزيتها ذهن القارئ ليغوص في معاني النص إذ أن "الكاتب غالباً ما يتقصد اختيار مقولات يجد فيها ضالته في إيصال شعاع نصه إلى القارئ"⁽¹⁾ فتنبني في القول خصوصية التجربة التي تجعل الكاتب لا يجد قولاً يعبر عن النص غير أن يكون نابعا من نفسه، ومن هنا يكون القارئ أقرب للنص والكاتب على حد سواء تسعفه في ذلك لغة الكاتب وبراعة المتخيل.

ومن خلال هذا تتحدد دلالات سلطة الواقع في حقيقة عاشت الكاتب لم يكن للزمن فيها قدرة على تجاوزها، فكانت المخيلة ملاذاً تتحقق فيه القيم هروباً من واقع لا يمكن تغييره، كما تتجلى شعرية المتخيل في دلالات الخيال الذي ترجمه الكاتب في فنية تجعل منه واقعا مفترضا عاشه الكاتب دافعا القارئ للتمعن في آفاق الممكن والمتخيل في الرواية.

3.1. العناوين الداخلية ورحابة المتخيل.

يلجأ الكاتب في تقسيم فصول روايته إلى وضع العناوين الداخلية، فتنشأ رابطة ثلاثية بين الفصل وعنوانه وبين العنوان الداخلي والعنوان الرئيسي للرواية، ما يجعل هذه العناوين "تعمل إما على تكثيف فصولها أو نصوصها عامة، وإما تفسيرها، وإما وضعها في مأزق التأويل"⁽²⁾ فيختزل العنوان مضمون الفصل لتتشكل علاقة الموازنة بينهما، فيسهل على القارئ من خلاله تأويل النص وترتيب البناء السردى وإخراجه من مأزق الغموض.

(1). سهام السامرائي، العتبات النصية في رواية الأجيال العربية، ط1، منشورات السامراء، كلية التربية، العراق، 2016، ص. 105.

(2). عبد الحق بالعابد، عتبات (جرار جنيت من النص إلى المناص)، ص. 125.

فنجذ الكاتب في طفولتي حتى الآن يحرص على اختيار عناوين تعبر عن مكونات كل فصل، فيقسم روايته إلى سبعة فصول أورد في كل فصل فترة من فترات طفولته الحقيقية والمتخيلة، ليجعل كل عناوين روايته تختزل في لفظة الطفولة فعنون الفصل الأول بطفولة أولى والثاني بطفولة ثانية وهكذا في كل الفصول إلى أن يصل إلى طفولة سابعة، فغلبت دلالات الطفولة لتعني المتخيل في تفسيرها كمعنى حقيقي واقعي في بدايات العمر الأولى وكبنية متخيلة يحملها الكاتب دلالات أخرى.

تعبّر عناوين الفصول عن مغزى العنوان الرئيسي رغم بساطتها، فتؤول معاني طفولتي حتى الآن، لتتحدد من الطفولة الأولى إلى الطفولة السابعة التي وصل فيها إلى نهاية مفتوحة حملها أعماله ومنجزاته، "فالعناوين الداخلية كبنية سطحية هي عناوين واصفة شارحة (...). لعنوانها الرئيسي كبنية عميقة"⁽¹⁾ فتكون الجسر الذي يربط العنوان الرئيسي بنصه.

وتنبئ اللغة المكثفة في هذه العناوين عن رحابة الفضاء المتخيل في فصول الرواية، فتثير العناوين التساؤل حول مغزى الطفولة في كل فصل، ليحقق النص هذا الفضاء فتصبح الطفولة بناء يتجاوز حدوده الواقعية إلى معاني أوسع يشكلها الكاتب وفق ما أتاحتها تلك القواعد التي تجعل من الرواية بناء أساسه الواقع ومحوره الخيال.

2. شعرية اللغة وفنية تشكيل المتخيل السرد في فضاء الرواية.

حين ترتقي اللغة تتجلى خصوصية الكتابة وبراعة القول فتعلو بالمتخيل لتتمثل فيها هوية الكاتب وتميزه، من هنا ينتقل السرد من بساطة الحكى إلى بنية جمالية وإيحائية هي في الأساس لغة لها كيائها الخاص إذ "لم يعد من الممكن تصور الأدب كفن يهمل كل علاقة مع اللغة، منذ أن استخدمها كوسيلة للتعبير عن الفكرة عن الهوى أو عن الجمال"⁽²⁾ فشكّلت اللغة جوهر الكتابة الأدبية التي ما إن أسعفت الكاتب ملكاتها حق التميز والتفرد.

(1). المرجع نفسه، ص. 126. 127.

(2). ر. بارت، و. كايسر، و. ك. بوث، ف. هامون، شعرية المسرود، ت: عدنان محمود محمد، ط1، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق-سوريا، 2010، ص. 12.

ولأن الشعرية تحقق أعلى مراتب اللغة في تراكيها أضفت على المتخيل السردى فنية التعبير ورمزية المعنى، لتنتقل صورة الأشياء من سطحية الرؤية إلى بناء أعمق ترتسم معالمه المتخيلة، فيصبح فضاء الرواية عالما فنيا يحمل للقارئ أثر الواقع بجمالية المتخيل، فنجد الكاتب في رواية طفولتي حتى الآن يستوحى من الذاكرة والحلم متخيلا يروي واقعا من سيرته، كما يبدع في وصف الواقع بفنية أتاحها المتخيل، لتكون اللغة بشعريتها سبيلا يشع النص من خلاله بنية وتركيبا.

1.2. اللغة وبناء المتخيل بين الحلم والذاكرة.

تنفتح في اتساع المخيلة آفاق السرد التي تعلو به عن قيود الواقع، لتتحدد في بنية المتخيل السردى التي تأرجحت بين أحلام الطفولة واشتغال الذاكرة، فكانت شعرية اللغة ترجمة لذلك الوجود المتخيل الذي عاشه الكاتب في نصه.

إذ تظهر من خلال النص تلك المحاولة التي تضيفي على حلم طفولي لمحة الواقع، فيعيش إبراهيم الطفل حلمه في السفر وكأنه واقع تشاركه في ذلك الأم التي عبرت عن مخيلته حيث يقول "عدت إلى البيت متظاهرا بأنني أحمل حقيبة كبيرة رأيتني أمني أنحي وأضعها عند الباب. ابتسمت: كم مرة عليّ أن أطلب منك أن تضع الحقيبة في الزاوية كلما عدت من السفر، كي لا تتعثر بها أخواتك وإخوتك"⁽¹⁾ فحين تترفع المخيلة عن الواقع تشترك في الأحداث كل الشخصيات التي تجعل الواقع متخيلا والمتخيل واقعا، إذ لم تمنع الأم حلم الطفل، وأصبحت الحقيبة الخفية واقعا متحققا في الذهن.

ويكمل الكاتب في سرد أحداث حلمه الذي عاش تفاصيله رغم الواقع المفروض فيقول مستجيبا لطلب أمه "بأدب العائد من باريس اعتذرت لها بلطف شديد، انحنيت ثانية، رفعت الحقيبة الخفية ووضعتها في الزاوية خلف الباب"⁽²⁾ لتكمل اللغة هنا بناء الصورة الفنية المتخيلة، فيصف السارد في المشهد جموح الخيال الذي عاشه ليجعل من المكان فضاء له، فيخلق بخياله ليزور ما لم تتحه له قيود الواقع.

تساعده في هذا الشخصيات التي اكتسبت وجودا داعما في الرواية "فبعد أن كانت

(1). إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص.15.

(2). إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص.15.

الشخصية مجرد اسم فاعل للحدث اتخذت قواما نفسيا، وأصبحت فردا "شخصا" وباختصار صارت "كائنا" ممتلئ التكوين"⁽¹⁾ ما جعل لها هذا الدور المهم في تحريك الأحداث والأراء وبناء المتخيل، فاستقبلت الشخصيات الخيال مع السارد وعاشته هروبا من الواقع، ودعما لكل الأحلام التي حرموا منها في بداية العمر حيث تستيقظ الرغبات والأحلام.

وفي صورة أخرى لشعرية اللغة التي تتحدد فيها جمالية المتخيل يبني إبراهيم نصر الله حوارا مع الطيور، لتظهر براءة الطفولة في أحلامها فيتخيل إبراهيم الطفل قولا للعصفور الذي بقي بعد مغادرة البقية فيقول "ولقد اعتذر لي عن مغادرتها قبل انتهاء العزف فهي تتناول العشاء مبكرا قبل مغيب الشمس، أما هو فقد بقي ليفسر لي، بناء على طلب الطيور الأخرى، مسألة ذهابها قبل أن أنهي"⁽²⁾ تنشط هنا المخيلة فيخرج الكاتب الطيور عن صمتها لتعتذر وتفعل ما لم يفعله البشر، فينبئ هذا الحوار المتخيل عن الصمت المحاط به كل فلسطيني وعن رغبة الكاتب المخيلة التي أبدع من خلالها ردا ظاهره على لسان الطيور وباطنه رؤية تحمل شعور الخذلان من الوضع الثقافي.

لتنشغل الذاكرة بعدها مخلدة تلك الحادثة فيعيد الكاتب تفاصيلها برؤية ناضجة، إذ تمثل الذاكرة آلية لبناء المتخيل عن طريق الاسترجاع فيقول الكاتب "دائما نضحك حين أستعيد تلك المأساة الثقافية، وفي كل مرة أتذكر العصفور الأخير فوق الشجرة وحواري معه وأتساءل ضاحكا بالطبع، هل فهمت حقا ما قاله لي في ذلك اليوم البعيد حين تبادلنا التغريد"⁽³⁾ فيمثل الكاتب المأساة الثقافية في محاضرة لم يحضرها سوى حارس المسرح الذي لن يهيمه سوى وقت انتهائها ليغلقه، كانت هذه المأساة محفزه لتذكر العصفور الوحيد فوق الشجرة، ليتساءل في نفسه هل فهم حقا مراده من البقاء، أم أن الطائر هو صورة أخرى لحارس المسرح، فتتيح المخيلة هنا مجال التأويل ليشرك الكاتب القارئ في البناء.

وتنهي الذاكرة مع الحلم المتخيل في الرواية ما يحول الواقع رغم قساوته مجالا للتفاؤل وفضاء يشجع الشخصيات لتجاوز المصاعب مثلما جسده شخصية بشير في

(1). ر. بارت، شعرية المسرود، ص. 31

(2). إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص. 315

(3). إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص. 315

الرواية حيث يقول الكاتب "لكنه تجاوز مأزقه وهو يتذكر حلمه، وما بقي معه من دولارات قليلة، حمل كتاب "أبو الهول يطير" واندفع عبر شوارع نيويورك، كأن نيويورك ليست نيويورك كأنها في الكتاب فقط"⁽¹⁾ فنيويورك التي كانت حلم بشير لم يكن واقعها أحسن من أن تبقى حلما، ليشير القول إلى فنية المتخيل السردى الذي يتعالى عن الواقع، فلم يعد بشير يرى نيويورك في الواقع كما هي في الكتاب.

ليحمل بذلك حلمه وصورته المتخيلة عن المدينة التي عبر عنها الكاتب في الرواية، لاجئاً إلى ما يقدمه المتخيل من صور، "فالإنسان يقف عاجزاً أمام أسئلة الوجود وأسئلة الواقع فيلجئ إلى المتخيل ليجد أجوبة لم تمنح له، أي أن المتخيل لا ينبع عن اختراع أعلى بل هو سؤال لم يشبع العقل"⁽²⁾ ما جعل بشير يواجه عجزه في المدينة التي حلم بها منذ صغره، فأصبح كتاب أبو الهول يطير ملاذه للحفاظ على صورة حلمه، فجال شوارع المدينة بين ثنايا حروف الكتاب، من خلال اللغة التي يبدع الكاتب من خلالها في بناء عوالم الممكن والمتخيل.

فيظهر الكاتب بأسلوبه المتميز بين سلاسة البناء وعمق التصوير، جانباً من شعرية اللغة في بناء المتخيل حين يمعن في وصف أحلامه وأحلام الشخصيات التي قاسمته واقع الأحداث، فيجمع الكاتب بين الذاكرة والمتخيل في العودة إلى الطفولة استرجاعاً ووصف الحاضر استشرافاً، لتتأرجح الرواية بين بناء الواقع خيالاً ورسم المتخيل واقعاً.

2.2. جمالية الوصف في بناء الواقع المتخيل في الرواية.

حين يقيد الواقع المخيلة يجعل اللغة في تحد للتعبير الفني عن تلك الأماكن والشخصيات والأحداث التي تنتقل من الجماد إلى الفنية، فتتحدد براعة الكاتب من خلال أسلوبه وطريقته في الوصف والتصوير، يتشكل هذا الواقع في طفولتي حتى الآن حين تتحدد مشاهد الحياة في المخيم والأحداث التي خلفت أثراً في حياة الكاتب وكل من عايشه تلك الأزمة التي فرضت عليهم في ظل التهجير.

(1) المرجع نفسه، ص. 401.

(2) . أسامة غانم، الرواية العراقية بين الذاكرة والمتخيل، ط1، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب، العراق،

2023، ص. 95.

فتنبني في فضاء الرواية مشاهد ترتسم في ذهن القارئ كأنه عايشها مع الكاتب واقعا حقيقيا، حيث يقول على لسان الأم بعد هدم بيوتهم إثر القصف "برموش عيني جمعت ثمن هذا البيت، قرشا قرشا، جوعتكم وجوعت نفسي ليكون لكم بيت "أوسع" أُمي التي كانت تراقبنا نكبر يوما بعد يوم خائفة ويدها على قلبها"⁽¹⁾ تتجسد هنا قيمة البيت وحجم الألم في خسارته حين يكون ثمنه جزء منك، ويتضاعف شعور الأم بالخوف على أولادها من المجهول، ليجد القارئ نفسه ينتقل بخياله بين حطام القصف وألم الشخصيات وخوف الأم، فتبدع اللغة في تأثيرها على المتلقي.

ويواصل الكاتب في وصف المكان والضياع المحتم على الشخصيات التي لا تجد ما يأوي شتاتها فيقول "أسوء ما يمكن أن يحدث أن تعود إلى بيتك الفارغ، فلا تجد لك مكانا فيه، وتحولنا جميعنا إلى عمال، لا يعملون لكي يأكلوا، أو حتى ليتموا العمل، بل ليجد كل منهم فسحة ضيقة تتسع لجسده، كما لو أنه يحفر قبرا ليعيش فيه"⁽²⁾، كانت هذه المأساة التي يعيشها كل فلسطيني في فراغ محاط بالفوضى، هو حطام نفوس قبل البيوت وتمهان النفس في البحث عن ذاتها وسط فسحة ضيقة لم تسعها رحابة العالم، فاحتوتها رحابة اللغة في فضاءها السردي.

ليجعل الكاتب المكان ناطقا وشاهدا على معاناة تنقلها جمالية الوصف والتصوير، "فالوصف وأسلوبه من حيث تحديد أبعاد المكان ورائحته وتضاريسه وأشياؤه هي التي تمكن الكاتب من نقل القارئ من مكانه إلى مكان يريده"⁽³⁾، من هنا يصبح الكاتب كالمصور له زاويته الخاصة في التقاط الصور، وأدوات السرد التي تبدع في رسم تفاصيل المكان الذي عاش إبراهيم نصر الله تفاصيله قبل أن يكتبه، فنقله بحسه قبل لغته وروحه قبل أسلوبه لتصل للقارئ طبيعة الحياة فيه قبل أبعاده.

ومثلما يتحدث الكاتب عن التصوير والوصف في الكتابة يذهب أيضا على جانب آخر من الوصف في الرسم، فيذكر في الرواية أخاه الذي تفنن في موهبة الرسم التي كانت سبيله للتعبير عن كل ما يراه واقعا ويريده متخيلا حيث يقول معلقا عن لوحاته "في تلك

(1) . إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص. 364.

(2) المرجع نفسه، ص. 372.

(3) محمد شوابكة، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمان منيف، مجلة أبحاث البرموك، مجلد9، عدد2، ص. 12.

الفترة ظهر شيء جديد في لوحاته لم يظهر من قبل: الأسلوب، فجأة أصبح له أسلوبه الخاص به، من خطوط ومساحات وملمس، هناك القش، وهناك التراب، بحيث تحس كمشاهد أو بإمكانك أن تمد يدك وتحفن التراب ببساطة⁽¹⁾ إنها نظرة كل فلسطيني للمكان إن لم تكن باللغة فهي بالرسم وإن لم تكن بالرسم فهي بالكاميرا، هي الرؤية التي تجعل المكان يعيش في المبدع، والموهبة التي تنتزعه من واقعه إلى عالم الفن بكل أساليبه.

وفي جانب آخر من الرواية تحلق أحلام الطفولة واقعا حين يصبح السفر حقيقة للشخصيات، فتذهب كل شخصية راكضة خلف أحلامها بعد أن كانت حبيسة الخيال والكتب، إذ يصف الكاتب آفاق السفر التي فتحت أمام صديقه بشير حيث يقول "وجد أن زيارة هاتين المدينتين قبل زيارة القاهرة تنكرا لأجنحة الخيال التي منحها له القاهرة ليخلق، في زمن لم يكن يملك فيه سعر تذكرة الحافلة"⁽²⁾ فهو الامتنان الذي يقدمه للأدب والأدباء بعد أن كانت كتاباتهم ملجأ الحلم الذي حرمتهم من بلوغه معاناة المخيم، لتصبح كتب طه حسين وتوفيق الحكيم عن مدينتي حلمه -باريس ونيويورك- أنيسه ليعيش بخياله فيها مرتين، الأولى حين كانت حلمه والثانية حين كانت نيويورك واقعا غير الذي في الكتاب.

تستمد الكتابة من تجارب المبدع التي عاشها فهي في النهاية جزء من كينونته التي تتحقق حين يبدأ السرد، فيؤكد الكاتب وفق نظرة صديقه قاسم في الرواية هذه الرؤية حين يبرر له سبب نفوره من الكتابة وميله لأن يصبح ناقدا فيقول "هل لاحظت أن معظم الكتاب يبدؤون حياتهم بكتابة تجاربهم أو جزء منها؟ حتى أنت بالنسبة إليّ لست مستعدا لأن أعيش في الكتابة مرة ثانية؛ ما عشته حقيقة. لماذا؟ لأنني لست من هواة التلذذ بالأحزان كان عليّ أن أفعل المستحيل للخروج من بحرّها"⁽³⁾ فالكاتب مهما بلغ به الخيال وإن حلقت به الأحلام فهي في النهاية جزء من تجاربه إما واقعا أو خيالا.

فيبدع إبراهيم نصر الله في وصف الواقع بإشراك الشخصيات في سرد أحلامها ومعاناتها، منتقلا بين الماضي والحاضر والشخصيات بمرونة السرد تاركا حرية الزمن تمضي في الرواية التي تتحدد فيها التواريخ ويتماها فيها الزمن، ويكون وصف المكان فيها

(1). إبراهيم نصر الله ، طفولتي حتى الآن، ص.449.

(2). المرجع نفسه، ص.395.

(3). إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص.406.

بتفاصيله بين المخيم حضورا والوطن الأصلي -فلسطين- غيابا.

خاتمة:

بعد تقصي شعرية اللغة وجمالية بناء المتخيل في رواية إبراهيم نصر الله، من خلال البحث في شعرية العتبات ودلالات المتخيل فيها بداية من العنوان والتصدير وصولاً إلى العناوين الداخلية، والتطرق لفنية تشكيل المتخيل السرد في فضاء الرواية نجد أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة تمثلت في:

- بناء عتبات الرواية يكون انطلاقاً من مدلولات النص ومعانيها، فجعلها إبراهيم نصر الله المفتاح الأول لتشكيل المتخيل في روايته التي تضمنت سيرته بلغة فنية تجلت من خلالها شعرية السرد وجماليته.
- يتضمن عنوان الرواية -طفولتي حتى الآن- الجانب المتخيل من النص، فيحمل مقاصد الطفولة التي لا تموت في الإنسان وإن هرم الجسد تبقى فيه حلماً، ليحتفظ بها الكاتب كما ورد في متن الرواية فيحقق موازنة النص مع المناص.
- تجلت من خلال التصدير في الرواية فنية اللغة المبنية على المتضادات، ليحقق مدلولات المتخيل في النص الذي حمل الخيال الذي عاشه الكاتب في أحلامه والحقيقة التي عاشته متمثلة في واقع المخيم وما انجر عنها من معاناة.
- تساعد العناوين الداخلية في تحقيق الترابط بين عنوان النص ومتمنه، وبين فصل الرواية وعنوانه فتمهد الطريق للمتلقي في فهم العمل الروائي ودلالاته.
- تشكل بناء المتخيل في طفولتي حتى الآن بين أحلام الطفولة التي عاشتها الشخصيات حاضراً واستشراقاً والذاكرة التي خلدت أحداثها استرجاعاً، وجسدتها لغة الكاتب الشعرية وأسلوبه الفني في السرد.
- تعددت مظاهر الواقع المتخيل في الرواية التي تصور معاناة الشخصيات في المخيم بعد الهجرة، ليحدد تفاصيلها الوصف بجمالياته التي تحمل المتلقي إلى عمق المكان بمأساته والشخصيات بأحلامها وآلامها.

المراجع:

- إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، الإمارات، 2022.

- أسامة غانم، الرواية العراقية بين الذاكرة والمتخيل، ط1، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب، العراق، 2023.
- ر.بارت، وكايسر، وك.بوث، ف.هامون، شعرية المسرود، ت:عدنان محمود محمد، ط1، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق-سوريا، 2010.
- سهام السامرائي، العتبات النصية في رواية الأجيال العربية، ط1، منشورات السامراء، كلية التربية، العراق، 2016.
- عبد الحق بالعابد، عتبات (جرار جنيت من النص إلى المناص)، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، 2008.
- عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، ط1، دار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، 2011.
- محمد شوايكة، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمان منيف، مجلة أبحاث البرموك، مجلد9، عدد2، 1991.
- نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصة المعاصرة، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2017.